مقاربات نقدية في نظرية القصة القصيرة

عربان مصطفى
جامعة محمد بوضياف - المسيلة

القصة القصيرة فن ظريف استحدثته الحياة الأدبية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر، وأسهم الأديب الفرنسي ***جي دي موبسان*** بكتاباته الإبداعية في هذا اللون من الأدب ونشره بين القراء . وقد واجه في ذلك صعوبات جمة ومشكلات كثيرة. ورغم الحصار الأدبي الذي فرض على كتاباته والحواجز المعنوية التي كان المحافظون، وهم أرباب الجرائد والمجلات يضعونها لمنع انتشار القصة القصيرة. فلم ييأس ولم يركن إلى الدعة والخمول، بل أصر على مواصلة الكتابة، وكان يستغل لقاءاته بالمثقفين ليشرح دعوته ومذهبه الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى استقرت في الوجدان الفرنسي قيم جديدة بدأت تتضح معالمها في تطلعات الأدباء إلى التغيير والبحث عن طرق جديدة للكتابة، سرعان ما غدت القصة القصيرة مطلبا حيويا وضرورة لازمة من لوازم هذا التغيير؛ لما تتمتع به من حرية في تناول الموضوعات وقدرة على استشفاف خواطر الضمير. والواقع أن القصة القصيرة لم تنشأ من عدم، بل لها أصل فلسفي، هو علة وجودها وسبب بقائها، وليست كما يعتقد بعض المتأدبين نزوة عابرة أملتها طبيعة المجتمع الفرنسي. هذه الطبيعة التي تتفنن في الأساليب كما تتفنن في الأزياء.

إن ***موبسان*** هو أحد المؤسسين للمدرسة الطبيعية في الأدب. يعتقد كغيره من الأدباء الطبيعيين أمثال ***زولا وفلوبير*** أن الأدب الحقيقي هو الذي يصور الحياة الإنسانية تصورا شاملا ودقيقا، يسجل ما يعتمل في النفس من عواطف، ويتعمق دوافع السلوك، ويتتبع خطرات الهواجس. وكانت كتابات هؤلاء بمثابة المرآة التي تعكس واقع الإنسان وظروف حياته بصدق. أما ***موبسان*** فكان يرى أن الحياة لحظات عابرة ، وأن هذه اللحظات متمايزة، كل لحظة تتضمن معنى متفردا عميقا، بحيث يصعب على الرواية أن تحتويها جميعا، وأن الطريقة التي نتصيد بها هذه اللحظات، وتمكننا من أن نلج أعماقها هي القصة القصيرة؛ بما لها من إمكانات الوصف وأدوات التحليل. وهذا التوجه الأدبي في حقيقة الأمر هو ما تدعو إليه الواقعية

الجديدة التي تحرص على تعمق الحيوات العادية للناس. فالقصة القصيرة عند ***موبسان*** هي التي تصور لحظة في حياة الإنسان، وتلتزم بحدث محدد تتعمق تفاصيله، وترصد نموه وتطوره، بغض النظر عن ما يسبق هذا الحدث أو يأتي بعده. وقد سارت القصة القصيرة على هذه الخطة التي رسمها ***موبسان*** واستحسنها كبار الأدباء أمثال ***إرنست همنجواي وأنتون تشيكوف ولويجي بيراندللو ويوسف إدريس***.

إن كثيرا من النقاد حين يقومون بتقويم ما ينشر على أعمدة الصحف من أعمال فنية يخلطون بين القصة والخبر، ويظنون أن الخبر هو لب القصة وهو أساس بنيانها، لذلك نراهم يدخلون أشكالا من التعبير وألوانا من الكتابة في باب القصة. وهذا التصرف لا يسيء إلى الأدب فحسب، بل يسيء إلى الكتاب أنفسهم، ويحرمهم متعة معالجة هذا الفن القصصي الأنيق. ولا يفهم من كلامي أن القصة يجب أن تكون خالية من الأخبار، فما إلى هذا قصدت، إنما أن نعد الخبر مجرد الخبر هو الجوهر وغيره قشور، فهذا تصور غير سليم واعتقاد فاسد. ثم إن الخبر يعدو أن يكون علما بالشيء أو نفيا له، وقيمته تتوقف على ما يزودنا به من علم وما يقدمه إلينا من معرفة، وإن السبيل إلى تحقيق هذا العلم وتحصيل هذه المعرفة هو المقال وليست القصة. لهذا يرى ***أرسطو*** أن قصص الأخبار هي أحط أنواع القصص؛ لأنها تعتمد في ربط الحوادث على المصادفة.

إن الأخبار في القصة لها خصائص معينة؛ من هذه الخصائص أن يكون لها أثر عام بحث كل خبر يرد يكون مرتبطا عضويا بالخبر الذي يليه، وكأنه المقدمة التي تسبق النتيجة، ولا يجوز أن يكون له معنى مستقل، ولا يكفي هذا بل يشترط في الخبر أن يكون موجها إلى غاية معينة يتعقبها باللطف هي تصوير حدث له بداية ووسط ونهاية. إذ ما معنى أن يرتب الكاتب الأخبار ويهيء لها نظاما معينا إذا كان القصد من ذلك أن يزيدنا معرفة لا غير.

هل تراني بحاجة إلى التأكيد على أن كتابة القصة القصيرة صناعة تتطلب معرفة عميقة بأصولها، ومهارة في استعمال أدواتها الفنية، واطلاعا واسعا على أساليبها المعروفة عند أصحاب هذه الصناعة. فإذا كان لكل لعبة قواعد يحرص محبوها على الالتزام بها، فإن المشتغل بالفن يجب أن يكون حريصا أكثر من غيره على سلامة فنه، غيورا عليه، ذائدا عنه عبث العابثين، ودعاة الفوضى باسم الحداثة والتجديد.

ولعلني بهذه العجالة أحفز الهمم، وأدفع المشتغلين بهذا اللون الأدبي الجميل إلى القراءة والبحث.

(سيدي عيسى–البلاد 15 جوان 2003)